رسالة الأدب

بين الأصفهاني والثعالبي

للأستاذ حامد حفني داود

— ٢ —

ولعلك بعد هذا العرض المنهجي — الذي أوضحته لك في المقال السابق — توافقني على أن الثعالبي كان مؤرخاً فنياً وأديباً لوذعياً، على حين كان الأصفهاني مؤرخاً استطرادياً يقصر جهوده عند سوق الأخبار وهو يكيلها لك بغير حساب أو منهج يرتضيه عرف المحدثين اليوم

ولعل المقارنة بين الرجلين لا تقف بنا عند هذا القدر. فهناك جانب خطير أول ما يستلفت الباحث فيه سعة الأفق التي نلحظها في مؤلفات الثعالبي حيث لم يكتف بما اكتفى به الأصفهاني من مؤلفات لا تتجاوز مادة الأدب. يدلك على ذلك أنك لا ترى علماً من علوم العربية إلا وله فيه إصبع ومشاركة وجولات واسعة تميزه عن غيره

صحيح أن الأصفهاني يشارك صاحبه في تاريخ الأدب ولكنه خالفه في الطريقة حيث لم يتجاوز هذا التاريخ الاستطرادي الصامت الذي ذكرناه. ولا نكاد نستثني من ذلك إلا شذرات اعترف له بها المؤرخون في «تاريخ النقد الأدبي»

فقد عاش الأصفهاني في عصر كان مليئاً بالأصداء النقدية، رسم النقاد خلاله خطوطهم الأولى في حياة النقد الأدبي. وقد كان ذلك عقب المعارك الأدبية التي دارت حول أبي تمام (٢٣١ هـ) والبحتري (٢٤٨ هـ) من ناحية، وحول أبي الطيب المتنبي (٣٥٤ هـ) شيخ شعراء ذلك العصر، والصاحب بن عباد (٣٨٥ هـ) زعيم نقدة الكلام وحامل لواء الكتابة والبيان في النصف الثاني من القرن الرابع — من ناحية أخرى ١)

هاتان المعركتان الأدبيتان وأمثالهما في القرن الرابع خلقت جيلاً عظيماً من النقاد الذين حملوا لواء النقد ووضعوا الأسس الأولى في حياته العلمية؛ فكان من بينهم: أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (٣٣٥ هـ) صاحب كتاب «أخبار أبي تمام» وأبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) والقاضي عبد العزيز الجرجاني (٣٦٦ هـ) صاحب كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه» وأبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (٣٧١ هـ) صاحب كتاب «الموازنة بين الطائيين» (٢) والصاحب بن عباد (٣٨٥ هـ) صاحب كتاب «الكشف عن مساوئ شعر المتنبي» وأبو منصور عبد الملك الثعالبي (٤٢٩ هـ) صاحب كتاب «أبو الطيب المتنبي: ماله وما عليه»

وأنت تستطيع من هذا الثبت التاريخي في حياة النقد الأدبي أن تستشف الخطوط الأولى في حياة النقد وأن تكشف اللثام عن معالمه الكبرى، ولعلك ترى معي أن الأصفهاني — رغم ما نسب إليه المؤرخون من مشاركة في «النقد الأدبي» — لم يترك لنا سفراً مخصصاً في حياة النقد كما فعل معاصروه الذين ذكرناهم لك. وأكثر من هذا ترى أن الصولي الذي كان أسبق منه في الزمن قد ترك لنا ما يصح أن نعتبره دستوراً قديماً في تاريخ النقد وهو كتاب «أخبار أبي تمام». ومن ذلك نعلم أن القول بمشاركة الأصفهاني في تدوين دعائم النقد الأدبي قول أجوف لا يستريح إليه الباحث المحقق، وعلى العكس من ذلك فإنك ترى الثعالبي — وهو آخر من ذكرتهم في ثبت النقاد — ترك كتاباً خاصاً في النقد هو كتاب «أبو الطيب المتنبي: ماله وما عليه» ومع أن الكتاب في جملته كان صورة معادة لما جاء به سلفه الصاحب بن عباد، ولكنه على أي حال كتاب مفرد أورد فيه صاحبه كل ما ذكره الصاحب في نقد المتنبي وأضاف إليه شذرات في تاريخ الحياة النقدية وما دار بين المتنبي والصاحب من عصبية كان لها الفضل الأكبر في خلق شطرين من النقاد: شطر يتعصب للمتنبي وآخر يتعصب للصاحب (٣)

وإذا تجاوزت معي دائرة تاريخ الأدب ودائرة النقد

١ — الصاحب بن عباد لصاحب هذا المقال (تحت الطبع)

٢) أصول النقد الأدبي لأستاذنا أحمد بك الشايب ص ١٠١ (بتصرف)

(٣) راجع كتاب «أبو الطيب المتنبي: ماله وما عليه» رقم ١٧٨١٦ (مكتبة الجامعة)

انكشف لك ما كان محجوباً عليك من أمر الثعالبي وشخصيته العجيبة ، ورأيت كيف كان الرجل يمثل عدة أجيال في جيل، ويصور عدة مدارس في شخص واحد

ولعل أول ما يلفت الباحث منزلة الرجل في تاريخ البلاغة ، فقد انقضى القرنان : الثالث والرابع والبلاغة لا تتجاوز في مؤلفاتها الخطيرة كتاب « البديع » لأمير المؤمنين عبد الله بن المعتز ، وكتاب « نقد الشعر » للكاتب قدامة بن جعفر و« كتاب الصناعتين » لأبي هلال العسكري . فلما أن كان أواخر القرن الرابع ومستهل القرن الخامس وكان الثعالبي استظلت البلاغة في ظل المدرسة الأدبية المتحررة التي أسسها ابن المعتز منذ قرن ونصف من الزمن ، وكانت علومها وقتئذ تسمى « البديع » . وقد نضج البديع عند الثعالبي نضوجاً ملموساً واتسعت أبوابه عما كان عليه . فأنواع البديع التي كانت لاتتجاوز سبعة عشر نوعاً في مدرسة ابن المعتز صارت في مدرسة الثعالبي خمسة وثلاثين نوعاً ، شرحها الثعالبي في كتابه « روضة الفصاحة وبهجة البلاغة في علم البديع » (١)

والثعالبي الذي اعتز بذاتيته في تاريخ الأدب لا ينساها حين يحدثك عن أنواع البديع، كما أنه لا ينسى أن يبدأ كتابه هذا بمقدمة فنية تناسب طبيعة المدرسة الأدبية التي كان برأسها. وأنت تلمس ذلك حين يعرف لك الفصاحة والبلاغة ، ويوضح الغرض منهما . وهو يسمى علم البديع — أو علوم البلاغة على حد تقسيمنا اليوم — علم الأدب . ويريد به الوسيلة التي تؤديك إلى صناعة الأدب

وهو لا يكاد يحقق هذه النهضة البلاغية التي شرحناها حتى يطالعنا بأخرى حين يضع كتباً مفردة في البديع ، يجعل كل كتاب منها خاصاً بالحديث عن نوع معين من أنواع ذلك العلم

من هذه الكتب كتاب « النهاية في الكناية » وكتاب « الإعجاز والإيجاز » وكتاب « المتشابه أو أجناس التجنيس» ونعتبر هذه الكتب في تاريخ البلاغة أول محاولة في الأبحاث البلاغية الخاصة أو المفردة في باب واحد من أبوابها . وأنت حين تقرأ الأخير منها تحس بروح النظام والمنهج الثابت الذي لا يعتريه الاضطراب والملل كما كنت تحس ذلك عاماً في « يتيمة الدهر » حين أرخ للشعراء والكتاب. وهكذا يفتح أمامنا فتحاً جديداً آخر

ثم نتقدم خطوة رابعة فنرى أن الثعالبي الذي شارك في تاريخ الأدب والنقد وعلوم البلاغة — نراه — يرفع القواعد من المدرسة اللغوية كما رفعها من مدرسة البديع . وهنا يضع أمامنا كتابه « فقه اللغة وأسرار العربية » على نحو خاص يخالف فيه أصحاب المعجمات في وضعهم ؛ حين يرتبون مفردات اللغة ترتيباً أبجدياً ثم يأخذون في تفسير معانيها . فالثعالبي لايذهب في كتابه هذا مذهب ابن دريد (٣٢١ هـ) في « الجمهرة » والأزهري (٣٧٠ هـ) « في التهذيب » والصاحب بن عباد (٣٨٥ هـ) في « المحيط » وابن فارس (٣٩٥ هـ) في « المجمل » والجوهري (٣٩٨ هـ) في « الصحاح » — مع ما بينهم من اختلاف جزئي . ولكنه يجعل المعاني محور منهجه وأساس بحثه ، فيذكر لك المعنى ثم يسرد ما يدخل تحته من ألفاظ . وهو في ذلك يرتب الألفاظ ترتيباً زمنياً أو تصاعدياً أو تنازلياً أو نوعياً حسب جوهر المعنى الذي يذكره ويقتضاه

وأرجح كثيراً أن ابن سيدة الأندلسي (٤٥٨ هـ) تأثر به حين وضع كتابه « المخصص » مع شيء من التوسع الذي نرجىء بيانه في مجال آخر

ولم يقتصر الثعالبي على ما ذكرناه له من كتب في البلاغة واللغة، بل كان من النفر القليل الذين زودوا « المكتبة العربية » بكتب تزيد على الخمسة وعشرين كتابا وليس للأصفهاني ما يقاربها

وبعد فقد عرفت كيف كان أبو منصور الثعالبي مجدوداً في تاريخ الأدب متزعماً لمدارس النقد والبلاغة واللغة في الوقت الذي كان فيه الأصفهاني لا يتجاوز دائرة التاريخ الاستطرادي الصامت فشتان ما بين الرجلين !

إن مثل الثعالبي فيما أداه للعربية من رسالة الأدب في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس مثل أبي عثمان الجاحظ في القرن الثالث . إلا أن أبا عثمان كان فيلسوفا متفننا في أسلوب العربية على حين كان أبو منصور مؤرخا بارعا للعربية ، دارسا لعلومها وآدابها

حامد حفني داود الجرجاوي

(١) تاريخ البديع = لصاحب هذا المقال ص ٥٥ مخطوط